اتجاهات الكتابة التاريخية في موريتانيا
خلال القرنين(الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين)

د. باب ولد أحمد ولد الشيخ سيديا ـ أستاذ بجامعة نواكشوط، موريتانيا.

الملخص:

يسعى هذا العمل إلى استكناه مرحلة مهمة من التاريخ المحلي في تتبع نوعية وفهم الظاهرة التاريخية بأحداثها، وطرق كتاباتها، والمقاصد المرجوة منها في تمايزها واختلافها مع محيطها، أو اتفاقها معه في هذا المجال. والحق أن هذا العمل يبحث في كيفية الانتقال من مجتمع شفاهي لا يهتم بالتدوين إلى نوع من الكتابة تنسجم فيها مختلف العلوم دون الارتباط بعلم معين بذاته.

لذلك ينطلق البحث من محاولة النظر في هذه الكتابات المعرفية ومناهجها واهتمامها، حول الغاية من التاريخ وطرح سؤال التجديد في هذا الإطار حول المقاصد والغايات والأهداف المبتغاة منه حسب المخيلة الجمعية ، وهو أمر حدد طبيعة هذه الكتابة في خطوطها العريضة على الأقل في منهج سردي لا يتبنى أي طرح بنيوي؛ لأن الهدف يكمن في إبراز مواضيع من قبيل الأيام والأنساب المحلية وارتباطها بمحيطها العربي والإفريقي، خصوصا النسب الشريف منه في عملية ترتبط بالأساس بالرحلة إلى الحج، وتعريف الشناقطة بأنفسهم في الديار المشرقية.

والحق أن هذا المعطى أثر بشكل كبير في حركة التأليف ونوازع المهتمين بهذا الحقل المعرفي،مما ظهرت معه الكثير من الكتابات الذابة والمدافعة عن أهل هذا المجال، يُضاف إلى ذلك عامل لا يقل وجاهة عن سابقه، وهو مجيء الاستعمار إذ بدأت المصنفات والمؤلفات تظهر إما تحت طلب الإدارة الاستعمارية، أو لإظهار الخصوصيات المحلية كنوع من مجابهة القوى الاستعمارية.

وعموما فإن الكتابة التاريخية في هذه المدة ظلت أسيرة للمنهج التقليدي في فهم الظاهرة التاريخية في اتجاهين معرفين بالأساس يتمثلان في الأيام والأنساب، وهو أمر أثر بشكل كبير في الاتجاهات المعرفية المعاصرة في نوعية المواضيع المنتقاة وطبيعة المناهج المستخدمة في هذا الإطار.

لذا فإن الحقل التاريخي ظل منسجما مع الواقع المحلي وخصوصياته الإثنية والقبلية ودوافع ولواعج الهموم،بما تفرض من طبيعة معينة سيبقي الدارسون المحدثون أوفياء لها في الغالب في الهدف والغاية المرجوة من أي اهتمام محلي بالكتابة التاريخية ، وهو أمر جعل الدرس التاريخي يحتاج إلى التجديد في ظل التطورات المنهجية والمعرفية التي عرفها هذا المجال في نوعية مواضيعه واهتماماته وحتى اتجاهاته المعرفية، مما يحتم نزوعا حول التجديد البنيوي في الغاية من التاريخ والهدف منه ، وهو معطى يتمثل في نوعية المواضيع المدروسة وطبيعة المناهج المستخدمة في هذا المجال، لذا فإن ثمة مواضيع من قبيل الأمراض والأوبئة والمؤثرات العميقة التي أثرت في هذا المجتمع عبر تاريخه الطويل من القضايا التي تطرح نفسها بإلحاح من أجل الدراسة والتمحيص، على أن تحقيق التراث المخطوط من قبل الباحثين المتخصصين، والعمل على صيانته والمحافظة عليه من أجل أن لا تطمره عوادي الزمن - هو مطلب ملح يفرض نفسه في بيئة صحراوية تُعدُّ هذا التراث في الغالب الأعم ملكا فرديا يتوارث بين المعنيين، دونما النظر إلى

بعـده الجمعـي في هـذا المجـال.

الكلـمات المفاتيحيـة: الكتابـة التاريخيـة ـ المعرفـة التاريخيـة ـ المنهـج والمصـادر ـ معيقـات البحـث التاريخـي ـ موريتانيـا.

Abstract: This work seeks to shed the light on an important stage of local history in tracking and understanding the historical phenomenon, including its events, the methods of its writing, and the disparities with its surroundings or the common points they share. In fact, this article examines how to move from an oral community that doesn't care about blogging to a type of writing in which the various sciences are consistent without correlating with a specific science.

Therefore, this search is about trying to consider these epistemological writings, their approaches and interests, the purpose of writing history and to ask the question of renewal in this framework, about goals and objectives desired from it according to the collective imagination, a matter that determined the nature of this writing in its broad outlines, at least in a narrative approch that doesn't adopt structural proposition, because the goal lies in highlighting subjects such as local journeys and genealogies and their connection to their Arab and African surroundings, especially the honorable lineage in the process that is essentially related to the journey to Hajj and the definition of Al-Shanaqita themselves in the Eastern lands.

And the truth is that this factor greatly affected the authorship movement and the interests of those interested in this field of knowledge, with which a lot of dissolving writings that defend people of this field appeared with it, added to that a factor that is no less valid than its predecessor, which is the coming of colonialism, as the works of literature began to appear either under the request of the colonial administration or to show local peculuarities as a form of confronting the colonial powers.

In general, historical writing during this period remained cap-

tive to the traditional approach in understanding the historical phenomenon in two directions mainly defined in the local journeys and genealogies, something that greatly affected contemporary cognitive trends in terms of the quality of the topics selected and the nature of the product used in this framework.

Therefore, the historical field has remained in harmony with the local reality, its ethnic and tribal peculiarities, motives and concerns with that it imposes of a certain nature, where modern scholars will remain loyal to them, mostly in what conerns goals and desired objectives of any local interest in historical writing, which is what made the historical lesson needed to be renewed in light of developments in methodology and knowledge that this field has known in terms of the quality of its themes, concerns, and even cognitive trends, which necessitate a tendency towards a structural innovation in the purpose of history, which is given by the quality of the topics studied and the nature of the product used in this field. So, there are topics such as diseases, epidemics, influences and deep effects that have affected in this society throughout its long history of issues that present themselves urgently for study and scrutiny; not to mention that achieving the manuscript heritage by professional and specialized researchers, and working on its maintenance and preservation in order not to be buried is an urgent requirement that imposes itself in such a desertic environment that consider this heritage mostly to be an individual property inherited by all concerned people, without regarding its associative dimension in this field.

Keywords: historical writing, historical knowledge, methodology and sources, historical research obstacles, Mauritania.

تمهيد:

يحتاج الدرس الجامعي الموريتاني اليوم إلى كثير من الاهتمام بالمنهج، ومعرفة أدوات تفسير الظاهرة التاريخية بمختلف أبعادها وتجلياتها عبر الزمن الطويل؛ في سياقات الحدث وعوامل التأثير والتأثر مجتمعة.

لـذا يبـدو السـؤال عـن مفهـوم التاريـخ بصـورة عامـة هـو انعـكاس لتطـور المعـارف، والعقليـات، والمـراد مـن صناعـة الحـدث ذاتـه في فهـم الكاتـب والمثقـف والعامـي للظاهـرة التاريخيـة، ودورهـا في مجتمـع مـا . لـذا فـإن المفهـوم عـبر الزمـن الطويـل سـيتحرر تدريجيـا، ويصـاغ وفـق أحـوال المجتمعـات الإنسـانية جمعـاء مهـما كانـت نحلهـا أو مذاهبهـا أو معارفهـا.

كان التاريـخ عنـد الأقدمـين مـن يونـان ورومـان وعـرب يُعـدُّ عـلى أنـه سرد لحـوادث الماضيـين مـن الأمـم مـن ملـوك وأعيـان، دونمـا النظـر إلى السـياقات التـي أنتجـت الحـدث التاريخـي ذاتـه، ليبقـى المتحـدث عنـه نخبويـا في التعاطـي، والمـادة المنتجـة مـن ناحيـة الأحـداث ونوعيتهـا؛ لذلـك فالمرتكـز كان ظاهـر الأحـداث العظيمـة التـي أثـرت في تاريـخ البشريـة مـن زلال، وحـروب، وجوائـح، وأوبئـة أي الجانـب السـياسي الحـدثي متجـاوزة الحديـث عـن الجمهـور والعامـة بمختلـف أنواعهـا وتصانيفهـا.

عـلى أن مفهـوم التاريـخ والغـرض منـه سـيتطور ليشـمل علومـا ومعـارف متعـددة مـن أجـل فهـم الظاهـرة التاريخيـة ومعالجتهـا في سـياق بنيـوي شـامل بالانفتـاح عـلى العلـوم المسـاعدة والتعـرض لمواضيـع تهـم الإنسـان العامـي وتـؤرخ لـه. بـل تجـاوز الأمـر ذلـك إلى سـياق معنـى الوثيقـة ذاتهـا ودلالاتهـا التاريخيـة والخـروج بهـا مـن الفهـم التقليـدي، ووضعهـا في إطـار معـين مـن الشـمولية تتعـدد معـه الاسـتخدامات في صناعـة وفهـم الحـدث التاريخـي ذاتـه.

ولا تبـدو الحالـة الموريتانيـة بعيـدة عـن هـذا السـياق، رغـم الاختلافـات في تطـور المفهـوم والغـرض مـن التاريـخ تبعـا لتطـور العقليـات والمعـارف والمـادة المصدريـة المقدمـة؛ مـما سـنتعرض لـه في هـذا المقـال بقـدر مـن التحليـل والمقاربـات المنهجيـة المعـاصرة.

إشـكالية الورقـة: لم يعـد التاريـخ ذلـك العلـم التقليـدي المهتـم بالسـلاطين والملـوك، بقـدر مـا أصبـح الحقـل التاريخـي مجـالا خصبـا للبحـث في التحـولات الاجتماعيـة والفكريـة التـي تتعـرض لهـا المجتمعـات عـبر تواريخهـا العميقـة؛ مـما يجعـل هـذا النـوع مـن المواضيـع مـن المسـتجد في إبـداء مختلـف مـا يعيـق الكتابـة التاريخيـة الجـادة رغـم كـثرة المنتـوج المعـرفي في البـلاد، وعـلى ضـوء هـذه الاشـكالية :

مـا دوافـع الكتابـة التاريخيـة في المجـال الموريتـاني؟. مـا هـي المناهـج المتعبـة في الكتابـة عـن الظاهـرة؟. أي تشـابه بينهـا وبـين الكتابـات التقليديـة في المجـال الاسـلامي؟. ثـم ماهـي أبـرز العوائـق التـي تقـف حجـرة عـثرة أمـام التطـور الحـداثي للكتابـة التاريخيـة في المواضيـع والمنتـج والمحتـوى؟.

فرضيـات الورقـة: تنطلـق الورقـة مـن ثـلاث فرضيـات محاولـة الغـوص في أبعـاد الكتابـة التاريخية وعلاقتهـا بالمـورث في هـذا المجـال مـن حيـث المنهـج وعلاقتـه بالمحتـوى في قـراءة لا تخلـو مـن نخبويـة للأحـداث، وهـو منهـج سردي أبانـت النـماذج المسـتخدمة عـن الرؤيـة المـرادة مـن التاريـخ والغايـة منـه، أمـا الفرضيـة الثانيـة فهـي حـدود هـذه الكتابـة منهجـا ورؤيـة، عـلى أن الكتابـة التاريخيـة في بلـد شـحيح المـوارد يمتـاز ببنيـة اجتماعيـة قبليـة يـبرز عوائـق منهجيـة إذا مـا اتجهـت إلى الجـدة والموضوعيـة. وهـو مـا سـيُناقَش مـن خـلال المحـاور الآتيـة:

المحور الأول- تطور مفهوم التاريخ في المجال الموريتاني:

يبـدو مفهـوم التاريـخ في البـلاد الموريتانيـة ضبابيـا جـدا في النشـأة، ينسـاق تبعـا للتطـورات التـي ستشـهدها المنطقـة عـبر تواريخهـا متأثـراً بعوامـل نحسـب إيرادهـا مـن الـضروري الإلمـام ببعـض

جوانبـه ومرتكزاتـه:

أ. عامـل يتعلـق بالتأثـر بالحضـارة العربيـة الإسـلامية واهتمامهـا بالتاريـخ والغايـة منـه فهـو في النهايـة سرد لحـوادث الماضـين مـن الأمـم السـابقة غرضـه الاتعـاظ بأحوالهـا ومآلاتهـا، وعامـل يتصـل بالمؤانسـة مـن قصـص وروايـات عـن أحـوال الحضـارات السـابقة.

ب. عامـل يتصـل بالأحـوال المحليـة الداخليـة للمجـال الموريتـاني وتأثـره بالهجـرات، والتفاعـل الحضـاري بينـه وبـين المجـالات المصاحبـة لـه في الشـمال الأفريقـي، أو الغـرب الإفريقـي.

ج. ظهـور بعـض المـدن التاريخيـة الضاربـة في القـدم مثـل شـنقيط ولاتـه وتيشـيت ووادان ، وظهـور المفهـوم الحـولي لكتابـة التاريـخ، وهـو مـا شـكل معطـى جديـداً للاهتـمام بالتاريـخ والغايـة منـه متمثـلا في ظهـور حوليـات لتاريـخ هـذه المـدن، وكتابـة أبـرز حوادثهـا مـن مجاعـات وأوبئـة وحـروب ..الـخ

د. الاسـتعمار الفرنـسي والـذي سيشـكل حافـزاً مواتيـاً جـداً لكـثرة الكتابـات عـن المجـال الشـنقيطي دفاعـا عـن الهويـة، وتعريفـا بهـا، وتركيـزا عـلى الأحـوال والأيـام والـدول في هـذا المجـال، والحـق إن هـذه المـدة ستشـهد أبـرز المؤرخـين التقليديـين ممـن كتبـوا بكـثرة لافتـة للطلـب أحيانـا، وللمبـادرات الذاتيـة مـن جهـة أخـرى.

لـذا يظهـر بنـاء المعرفـة التاريخيـة في البـلاد الموريتانيـة متأخـرا بشـكل كبـير عـن سـياقاته المجـاورة السـودانية، أو المغربيـة متأثـرا بإشـكالياته المحليـة مـن غلبـة الطابـع البـدوي، والبنيـة التقليديـة للمجتمـع ، والظـروف الصحراويـة التـي لا تسـاعد في التوثيـق ولا الاهتـمام بالتاريـخ عمومـا، ثـم مـا تفـضي عليـه العمليـة التاريخيـة ذاتهـا مـن حساسـيات ومنعطفـات قـد تكـون في المجتمعـات التقليديـة مـن المسـكوت عنـه تجـاوزا لـكل مـا يمكـن أن ينعكـس عـلى الكاتـب ذاتـه للحـدث.[1]

وهـو أمـر جعـل الاهتـمام بتدويـن التاريـخ مـن المتجـاوز، وإن كانـت الظـروف والأحـوال فرضـت إيجـاد أنمـاط متعـددة مـن هـذه الكتابـات سـتظهر مـع أحمـد بـن الحـاج الـركادي المتـوفى سـنة ١١٣٠ هـ في كتابـه «الأنسـاب» ، ولعلـه مـن أقـدم هـذه الكتـب التـي ظهـرت في هـذا السـياق المجـالي، وكتـاب «لـب الألبـاب في حقائـق الأنسـاب» للشـيخ سـيدي المختـار الكنتـي المتـوفى سـنة ١٢٢٦ هـ «وفاتحـو أفريقيـا وملوكهـا وقبائلهـا»، وكتـاب «الحسـوة البيسـانية في علـم الأنسـاب الحسـانية ١٢٧١هـ».

ويذهـب باحثـون معـاصرون إلى أن مسـألة الوقـف الشـنقيطي في بـلاد الحرمـين، ومـدى أحقيـة القـوم في الاسـتفادة منـه نظـرا لانتماءاتهـم للأنسـاب العربيـة، ثـم معرفتهـم للمتـون الفقهيـة والعربيـة حـول التواريـخ والأيـام - خـير شـاهد عـلى ذلـك ومقـوم لـه.

لـذا يبـدو هـذا المطلـب مـن اللواعـج التـي حركـت القريحـة، وتداعـى لهـا العلـماء والفقهـاء ذبـا ودفاعـا عـن الأحقيـة، وعـن الأنسـاب الصافيـة لهـذا المجـال، مثـل كتـاب صحيحـة النقـل في علويـة إدوعل وبكريـة محمـد قـلي المتـوفى سـنة ١٢٣٣م. وهـو أمـر سـيؤتي أكلـه عـلى مسـتوى الاهتـمام بالحـوادث و الاعتنـاء بهـا، وتدبيـج الرحـلات العلميـة إلى الحجـاز في عمليـة لا تخلـو - حسـب وجهـة نظرنـا- مـن إعطـاء صـورة للآخـر في المجـالات العربيـة مـن تحديـد الـذات نزوعـا إلى الغايـة المرجـوة مـن ربطهـا بمجـال إسـلامي عـربي يُعـدُّ أصلهـا ومنبعهـا الأول، وإن اختلفـت الديـار والأحـوال والظـروف والتنـائي عـن المحتـد والأصـل.

وهـو أمـر سرع جـدا مـن ظهـور هـذه النـوع مـن الكتابـات المنافحـة والذابـة عـن أحقيـة القـوم، إضافـة إلى مـا يعـرف محليـا بكتـب الحوليـات المدبجـة في السـياق الشـنقيطي اقتـداءً بمنهـج سـار عليـه الأولـون مـن اعتنـاء بالتاريـخ ومقاصـده، مـن كونـه سـببا للوعـظ والاتعـاظ وجلبـا لفوائـد الأمـم السـابقة.

ولعـل قلـة الاهتـمام بالمـادة التاريخيـة عـبر عنـه الكثـير مـن الفقهـاء والعلـماء مـما لا يحـصى، وإن كان في غالبـه رد فعـل مبـاشر عـلى حـدث معـين بعينـه؛ إذ يقـول الشـيخ سـيدي بابـه في كتابـه «إمارتـا إدوعيـش ومشـظوف» مـا نصـه: «أمـا بعـد، فإنـه لا يخفـى عـلى العاقـل اللبيـب، والعـالم الفاضـل الأديـب مـا اشـتملت عليـه كتـب فـن التاريـخ مـن المسـائل العلميـة التـي لا تـكاد توجـد في كتـب سـائر الفنـون ، ومـن الحكـم والآداب التـي لا تحصـل مـن غيرهـا، والحديـث شـجون والأخبـار عـن أمـور تتكشـف بهـا أحـكام شرعيـة لنظـار العلـماء، وآراء سـديدة لأفاضـل العقـلاء، ومـكارم مستحسـنة يجعلهـا نصـب عينيـه مـن يسـتمع القـول فيتبـع أحسـنه، وحكايـات تديرهـا الفضـلاء في الأسـمار ليـالي الأقـمار، وفي نسـمات الأسـحار، ونفحـات الأزهـار، والدخـول إلى الموعظـة والاعتبـار مـن كل بـاب بالنظـر في قصـص تلـك القـرون لأولي الألبـاب كـما قـال قـس بـن سـاعدة:

في الذاهبـين الأوليـــن مـن القـرون لنـا بصائـر ... لمـا رأيـت مـواردا للمـوت ليـس لهـا مصـادر

ورأيـت قومـي نحوهـا يمـضي الأكابـر والأصاغـر ... يقنـت حقـا أني لا محالـة حيـث صـار القـوم صائر.

يظهـر هـذا النـص عـلى طولـه نوعيـة القصـد مـن التاريـخ والهـدف مـن وراء كتابتـه؛ فالحـدث التاريخـي في النهايـة مجموعـة مـن القيـم المثاليـة والمعطيـات القيميـة التـي تجـب الاسـتفادة منهـا وتعلمهـا حتـى تعـم الفائـدة منهـا، وليتقـي ضررهـا إن وجـد. بـل إن النـص وغـيره هـو موعظـة للأمـم المسـتحدثة استئناسـا بقديمهـا، ومـآلات الأمـور في معطـى لا يخلـو مـن ربطـه بالمقـدس والاسـتفادة مـن العمليـة التاريخيـة برمتهـا وفـق هـذا المنظـور.

ليظـل الاهتـمام بتواريـخ الحضـارة العربيـة الإسـلامية الأولى مشـغلا فكريـا، وموضوعـا ثريـا للنقـاش والكتابـة عنـه تسـتدعي ضرورة الاهتـمام بالنبـي محمـد صـلى اللـه وسـلم في الحديـث عـن سـيرته ومطعمـه وملبسـه ونسـبه ونسـب أعمامـه وأخوالـه، والفتوحـات الإسـلامية ومسـاراتها، مثـل محمـد اليـدالي المتـوفى سـنة ١١٦٦هــ في كتابـه «الحلـة السـيرا في أنسـاب العـرب و سـيرة خـير الـورى» و غيرهـم.

المحور الثاني- الأنساق التاريخية ونوعية المادة المقدمة:

نقصـد بالأنسـاق التاريخيـة طبيعـة هـذه المصـادر، ونوعيـة الكتابـات التـي دبجهـا الموريتانيـون طـوال القـرون الماضيـة، ولا يخفـى ضرورة أن النسـق -كـما وضحنـا سـابقا- لا يختلـف عـن التعاطـي العـربي مـع الحـدث التاريخـي، وطبيعـة المقصـد منـه؛ فـما هـو إلا تعبـير يـراد منـه معرفـة المـاضي دون البحـث عـن الأسـباب الحقيقيـة للحـدث التاريخـي، كـما سـيظهر مـع مدرسـة الحوليـات الفرنسـية في تقسـيم الحـدث، ونوعيـة المقصـد منـه؛ فالحـدث هـو جـزء مـن الظاهـرة، وليـس هـو كل الأمـر، بـل ثمـة تحـولات بطيئـة وعميقـة تؤثـر وتصنـع الغايـة والهـدف مـن التواريـخ العامـة والخاصـة. لـذا فبالإمـكان اجرائيـا تقسـيم نوعيـة الكتابـات وطبيعتهـا إلى عديـد المواضيـع، وإن كانـت المحتويـات بطبيعتهـا تتأثـر وتنتـج في معـالم بنيويـة شـاملة للخصوصيـة، ولنوعيـة المنتـج مـما يمكـن حـصره في الآتي :

١. **كتب الحوليات :** رغم قدم هذا النوع من المصادر في الحضارة العربية الإسلامية والذي يشير من الناحية العملية إلى معنى الحول (أي العام)، وهو في مؤداه تقليد مدني مارسه أهل المدن (ولاته ـ تشيت ـ تجكجه، النعمة، تنمبكتو) في التاريخ لأحوالهم وأيامهم، وما مر بهم من حوادث تميزت بالحديث عن القحط والجفاء والوباء. وهو تقليد غاب عن البوادي، وهي الأكثر مجاليا، ورقعة جغرافية للمجال الموريتاني. وقد ساهم هذا النوع من الكتابات بشكل لا مراء فيه في إثراء المادة التاريخية ونوعيتها وطبيعة مقاصدها، وإن كان الغرض منه التاريخ لأحوال تلك المدن، بغض النظر عن طبيعة كتابها غير المختصين؛ فهم بالأساس هواة، ومتعددي الثقافة، والمستويات.

٢. **كتب التراجم والمناقب:** يكثر هذا النوع من الكتب في المجال الموريتاني؛ نظرا لوفرته وتعدده أنماطه والغايات العلمية من وراء كتابته، لذلك اهتم العلماء بالحديث عن الرجال والفقهاء في حديث لا يخلو من الموسوعية لمعرفة الحياة الثقافية، وتطوراتها عبر القرون.

ولعل من أبرز هذه الكتب على تعدد أنماطها كتاب « فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للبرتلي ومنح رب الغفور في ما أهمل صاحب فتح الشكور» للمحجوبي.

إضافة إلى الكتب العامة، مثل كتاب «الحسوة البيسانية في معرفة الأنساب الحسانية» لصالح بن عبد الوهاب الناصري، وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم في كتابه «الروض في أنساب أهل الحوض»، وكتاب «الطرائف والتلائد» و«الرسالة الغلاوية» للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، وكتب المختار بن حامدن حوادث السنين، والموسوعة التي أنتجها حول التاريخ الموريتاني في بداية تاريخ الدولة الوطنية.

والحق أن هذا النوع من الكتابات كان سرديا في المعلومات المقدمة، موسوعي المحتوى استئناسا واقتداء بالموروث الإسلامي في هذا النمط ونوعيته، فلم يكن همه دراسة أحوال الناس، ولا التركيز على العامة، بل كان تقليديا في عناوينه ومحتوياته رغم الجدة في بعض مضامينه.

٣. **كتب الأنساب:** تبدو الوثيقة الأهلية تحتل مكانتها حتى اليوم في المجال الموريتاني، وهو أمر يجد وجاهته من الناحية التاريخية في أنه لكل قبيلة، أو فئة أنساب خاصة بها وتمثلات ينتجها الأبناء والأحفاد دونما النظر إليها من قبل المختصين والدارسين، بل يعد الأمر من الخطورة بمكان الحديث عنه، أو تنقيحه والعمل على صقله من الشوائب.

وأمام هذا المعطى المعاصر توجد كتابات حول (النسب الشريف ـ القرشي ـ الأموي ـ اللمتوني) مما لا يعد في تصنيف محدد، وإن كان من أبرز الأمثلة ساطع الإنارة في أنساب شرفاء تيشيت وطلبتها، وكتاب الأنساب لسيدي أحمد بن حبت الغلاوي وغيرهم.

وعلى الرغم من أهمية الوثيقة المحلية في كتابة التواريخ الوطنية المعاصرة - فإن هذا النوع من الوثائق ظل بمنأى عن التحقيق والفحص لضرورات المجتمعات التقليدية وحاجاتها إلى نوازع من هذا القبيل.

٤. **الكتب الاستعمارية:** لا جدال في أهمية الكتابات الاستعمارية التي أنتجها الرحالة الأوربيون، ولو كانت بهدف السيطرة على البلاد، إلا أنها قدمت للقارئ والدارس مجموعة من الملاحظات

عـن تاريـخ المنطقـة، ودراسـة أحوالهـا الاجتماعيـة والاقتصاديـة، والنظـر إلى خصوصيـة المنطقـة الصحراويـة، وطبيعـة مناخهـا مـما شـكل رصيـدا إضافيـا لمتتبعـي هـذا التاريـخ ومراحلـه مـما يمكـن وضـع مصـادره في المكتبـات التاليـة:

- المكتبة الوطنية بباريس.
- مكتبة وزارة الخارجية الفرنسية.
- أرشيف ما وراء البحار.
- الأرشيف السينغالي الذي أنتجه فرنسيون(إداريون ـ رحالة مغامرون).

٥. **المصـادر الشـفوية:** تُعـدُّ الذاكـرة الجمعيـة مـن أهـم المصـادر التاريخيـة في البـلاد الموريتانيـة عـلى صيغـة الأقدمـين في الأخـذ بهـا؛ اعتبـارا لصحـة أسـانيدها نقـلا عـن الرجـال الثقـات (عـلى صيغـة حدثنـي فـلان، وأخـذت عـن فـلان) وهـو منهـج متأصـل في الموسـوعات الإسـلامية؛ وبالتـالي فالنزعـة الشـفوية ـ مـا لم توضـع شروط علميـة لذلـك سـتتأثر بالأحـوال المناطقيـة، والبنيـات الاجتماعيـة الموجـودة لتشـكل محتـوى يرجـع إليـه إبـان الـضرورات المحليـة في الأحقيـة، والملكيـة والشرعيـة التاريخيـة.

المحور الثالث- إشكاليات تحقيب التاريخ الموريتاني:

لا مـراء في أن التحقيـب العالمـي لتاريـخ الإنسـانية هـو عمليـة معقـدة المـراد منهـا تبسـيط الحـوادث في سـياق مـدرسي صرف، هدفـه بالأسـاس تسـهيل قـراءة مجريـات الأحـداث، والنظـر إلى تجـارب معينـة دون النظـر الموسـوعي إلى الأشـياء في غيـاب للمنهجيـة، وضرورة التخصـص في العـالم المعـاصر.

ولمـا كانـت العمليـة ذاتهـا طبقـت عـلى أسـاس عالمـي لا يهتـم بمجـال معـين عـلى أسـاس الآخـر- أنتـج مؤرخـو الـدول المعـاصرة تواريـخ عامـة، أو سـمات تميـز كل مرحلـة عـلى حسـاب الأخـرى نظـرا لمجموعـة مـن الخصوصيـات والمشـتركات التـي تشـكل قواسـم مشـتركة في حـد ذاتهـا .

لـذا فـإن هـذا الأمـر ينسـحب تمامـا عـلى الخصوصيـة الموريتانيـة، حيـث انكـب الباحثـون إلى وضـع سـمات لـكل مـدة عـلى حسـاب الأخـرى، حيـث يبـدأ التاريـخ القديـم مـن الألـف الثانيـة قبـل الميـلاد حتـى بدايـة الفتـح الاسـلامي ، بينـما التاريـخ الوسـيط يبـدأ مـن الفتـح الاسـلامي ابتـداء مـن القرن السـابع الميـلادي وينتهـي بسـقوط تنمبكتـو سـنة ١٥٩١م، بينـما التاريـخ الحديـث يبـدأ بسـقوط تنمبكتـو سـنة ١٥٩١م، وينتهـي بحصـار لحنيـكات ١٧٧٨م، أمـا التاريـخ المعـاصر فيبـدأ مـن حصـار لحنكيـات ١٧٧٨م وينتهـي بالسـيطرة الاسـتعمارية ١٩٠٣م، ليبـدأ مـا يسـمى بالتاريـخ الراهـن مـن ١٩٠٣م، ويمكـن أن تشـكل الدولـة الوطنيـة بدايتـه الفعليـة.

وعـلى الرغـم مـن أهميـة هـذا التحقيـب، إلا أن وضـع مرحلـة للتاريـخ الراهنهـو تجـوز يدخـل في إطـار المفقـود، بـل إن هـذه المرحلـة تدخـل في إطـار مـن التاريـخ المعـاصر، لأن الراهنيـة تفـرض نوعـا مـن التجديـد في المقاربـات، والمواضيـع المتأثـرة بالمناهـج المسـتحدثة، وهـو أمـر يغيـب عـن الدراسـات المعـاصرة عـلى الأقـل في المجـال الموريتـاني إلى حـد السـاعة.

لذلـك عمـل آخـرون عـلى وضـع تحقيـب آخـر لا يبتعـد كثـيرا عـن سـابقه، وإن كانـت الـضرورات المنهجيـة تفـرض ذكـره، والحديـث عنـه مـما يتمثـل في الآتي:

العصور القديمة التي تنتهي بالفتح الإسلامي في القرن 2 هـ8 م.

الطور الإسلامي الأول : ويبدأ من 2هـ8 م إلى منتصف القرن 5هـ11 م.

الطور الإسلامي الثاني : ويبدأ من منتصف القرن 5هـ11 م إلى القرن 9هـ 15 م.

المدة الحديثة : وتبدأ من 9هـ15 م إلى 13 هـ19 م.

المدة المعاصرة : وتبدأ من 13 هـ19 إلى اليوم.

لذا فإن إشكال التحقيب ظل من غير المتفق عليه عموما، على أن الذي لا خلاف فيه أن هذه العملية تخضع في حد ذاتها للتحولات العميقة التي عرفتها الصحراء والتي أثرت بشكل لا مراء فيه على المادة المنتجة وغيابها في أحايين أخر كثيرة حول مراحل من هذا التاريخ.

وقد ساهم الباحثون المعاصرون في تقسيم المادة التاريخية لكل عصر من هذا العصور، حسب وفرتها وندرتها، حيث اعتبرت مدة ما قبل التاريخ، والتاريخ القديم مادتها بالأساس الكشوفات الجغرافية، والمعطيات الأثرية في مدينة كومبي صالح، وأوداغست، وهي جهود مستحدثة نسبيا في إطار البعثات الكشفية من قبل الدولة الوطنية المستقلة.

بينما مرحلة التاريخ الوسيط اعتمد فيها بشكل أساسي على ما كتبه الرحالة الجغرافيون العرب حول المنطقة، بينما تظل المصادر التاريخية صامتة عن المدة الأخيرة من هذا العصر.

ولعل هذا الأمر مرده بالأساس انتقال الدولة المرابطية إلى مجالات أرحب شكلت المغرب مرتكزه وأساسه ليتمدد إلى المجال الأندلسي، وهو ما قلل من الاهتمام بتاريخ الصحراء، ونزوع المؤرخين إلى تتبع مراحل هذه الدولة في هذا السياق.

أما الحديث والمعاصر فستكون الكتابات المحلية أساسا له في ما يتعلق بالتواريخ المحلية، وكتب الحوليات، والوثائق الأهلية التي تتحدث عن سياق ما أو مجال.

وستُضاف إلى ذلك الإسهامات التي خلفتها الكتابات الاستعمارية من مواضيع جديدة، واهتمام بالحقل التاريخي، ودراسة البنى التقليدية الموجودة في المجتمع وفق النظرة الانقسامية في تفسير التطور والتحول، وقد أعطتنا في بعض جوانبها معلومات قيمة عن المجال الموريتاني.

بالإضافة إلى ذلك الكم الهائل من الفتاوى والنوازل والتي شكلت رصيدا معرفيا لا يمكن الاستغناء عنه للمهتمين المحدثين بالحقل التاريخي، وتطويع النص الفقهي لدراسة البنى التقليدية والتحولات العميقة التي عرفها المجتمع، وقد يسهم هذا النوع من المصادر في معرفة أحوال الانتجاع، والملكيات العامة والخاصة، ومعرفة الآبار ودورها في البيئة الصحراوية، وهي أمور كلها تغيب عن الاهتمامات التاريخية المعاصرة.

المحور الرابع- مناهج الكتابة التاريخية بين التقليد والتجديد:

يبدو المنهج التاريخي متأثرا كثيرا بالبنية الثقافية العربية التفكيرية حول الغاية من التاريخ والهدف منه؛ فالتاريخ لا يتعدي في منهجه سرد حوادث الماضين، دونما النظر إلى السياقات التي أنتجت هذا القول، أو هذه الحادثة.

لذا فإن السؤال المنهجي ظل عصيا عن الإجابة في البلاد الموريتانية طيلة القرن الثامن عشر وتاليه، بل إن المحتوى المنهجي ارتكز بالأساس على البعد الشرعي للمسألة من خلال إسناد

القـول إلى الـرواة وتزكيتهـم فقـط، بالتـالي لم يكـن ناتجـا بالـضرورة عـن وعـي في اسـتخدام المنهـج التاريخـي، وإنمـا كان الأمـر تقليـدا للمدونـة الإسـلامية في القصـد مـن التاريـخ، كالطـبري، والسـخاوي وغيرهـم.

ولعـل الأمـر الاسـتثناء في هـذا الجيـل تمثـل في الاهتـمام بالأنسـاب المحليـة، ومحاولـة تدوينهـا في سـياق محـلي أنتجتـه الـضرورة في الاهتـمام بهـا، والتأسـيس لهـا مـن الناحيـة الشرعيـة، بالنظـر إلى مـا يؤسـس لهـا مـن أحـكام، بـدء بالإمامـة الكـبرى، والأحـوال الشـخصية، والقيـم، والأخـلاق الرفيعـة، وهـي ضروريـة لمعرفـة حصـص الوراثـة، وأحـكام الأحبـاس، والدماء(العاقلـة)، والنـكاح بشـأن التكافـؤ.

وأعظـم شـاهد عـلي ذلـك عنـد القـوم أن أبـا بكـر، رضي اللـه عنـه، كان ضليعـا في أنسـاب العـرب، ومـن هـذا المنظـور كان التأليـف في مجـال الفقـه، يسـتحوذ عـلى اهتمامـات العلـماء الشـناقطة، ولذالـك فـإن علـم التاريـخ بشـكل عـام، وفـرع الأنسـاب منـه ظـلا بعيديـن، عـن محـور هـذا الاهتـمام، وقـد تعجـب الشـيخ سـيديا بابـه مـن هـذا الغيـاب:(... وكنـت أتعجـب مـن علـماء هـذه البـلاد البيظانيـة، الصحراويـة المغربيـة، وأدبائهـا عـلي فضلهـم ونبلهـم، كيـف لم يعتنـوا بتاريخهـا، في كتـاب معتـبر مـن أول الزمـان، مـع كـثرة مـا وقـع فيهـا، مـن الأمـور الكبـار، التـي ينبغـي الاعتنـاء بكتابتهـا، وكـثرة مـن كان فيهـا مـن الأكابـر الذيـن لا ينبغـي أن تـترك أخبارهـم نسـيا منسـيا عـلى جلالتهـا...) .

وحسـب حـماه اللـه ابـن السـالم، فـإن الشـناقطة لم يهتمـوا بتدويـن الأنسـاب إلا في المـدة التـي اتصلـوا فيهـا بالمـشرق حجاجـا، وحـين أرادوا الإفـادة مـن أوقـاف الحرمـين. وبذالـك كانـت قضيـة الأوقـاف هـي التـي دفعتهـم إلي تدبيـج كتـب الأنسـاب سـعيا إلى الاندمـاج في الأسرة الثقافيـة العربيـة، وتأكيـدا لحقوقهـم. ولعـل هـذه الأنسـاب رتبـت وألفـت في هـذه المـدة، وليـس نتيجـة أوضـاع سياسـية واجتماعيـة واقتصاديـة، كـما يحلـوا للبعـض مـن تلاميـذ المدرسـة الاسـتعمارية .

فقـد اتصـل الشـناقطة بمرتـضي الزبيـدي، في نهايـة القـرن الثـاني عـشر وتاليـه، وطلبـوا منـه تزكيـة لأنسـابهم، وقريبـا مـن هـذا التاريـخ ألفـت معظـم المصنفـات، والنبـذ مـن قبـل الشـناقطة.

فألـف الشـيخ سـيدي المختـار الكنتي(ت١٢٢٦هـ)، كتابـه الشـهير «لـب الألبـاب في حقائـق الأنسـاب» وسـيدي عبداللـه بـن الخـاج إبراهيـم العلـوي، كتـب نبذتـه صحيحـة النقـل، في سـنة١٢٠٥هـ ـ١٢٠٨هـ واسـتدل فيهـا بمـا ذكـره الزبيـدي لبعـض أهـل مدينـة شـنقيط، أنهـم بـين بكـري وحسـني.

وصنـف المـؤرخ البـارز، صالـح بـن عبـد الوهـاب (الحسـوة البيسـانية في علم الأنسـاب الحسـانية)، معرفـا بتواريـخ وأيـام وشـجرات بنـي حسـان، بطلـب مـن ابـن شـيخه عبـد الله بـن الحـاج إبراهيـم، وربما كانـت أسرة أهـل الحـاج إبراهيـم العريقـة المعروفـة، بكـثرة حجاجهـا، قـد أحسـت بـضرورة اسـتصدار هذا النـوع مـن التأليـف دعـما للشـناقطة في الحجـاز. وعمومـا فقـد خلـط في كتابـه بـين المنهـج الـسردي والتحليـلي، وكان لـه نفـس تجديـدي ورؤيـة نقديـة ثاقبـة في هـذا الاتجـاه.

وألـف بالإضافـة إلى ذالـك كتابـه في التاريـخ، كتـاب «أنسـاب صنهاجـة» بطلـب مـن صديقـه الطالـب جـدو رئيـس قبيلـة الاقـلال في بـلاد الحـوض.

وفي المـدة نفسـها صنـف التشـيتيون مـن المسـلمين جـل كتبهـم، مثـل « إنـارة المبهـم في أنسـاب شرفـاء تشـيت» ، وطلبتهـا بنـي محمـد مسـلم، و»سـاطع الإنـارة في أنسـاب شرفـاء تشـيت» وطلبتهـا بأوضـح عبـارة.

وصنف العالم الولاتي، محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي(ت ١٢١٩هـ)، موسوعته البديعة المسماة «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور»، وكذالك المحجوبي من حرب الغفور، في ما أهمل صاحب فتح الشكور، ويمكن أن نضيف إلي ذلك التصانيف في أيام العرب، والسيرة النبوية الشريفة التي عرف التأليف فيها طفرة عجيبة، وبرز فيها مصنفون متمكنون من أمثال: غالي بن المختار فال البصادي(ت ١٢٤١هـ)، والمجلسيان حمادة والبدوي .

وقد اعتمدت كتب الحوليات في مناهجها على المنهج السردي في ترتيب الحوادث حسب التسلسل الزمني والتاريخ للأحوال، والمزاوجة بين مناهج متعددة في هذا الإطار، وإن كانت لا تتخطى البعد التقليدي في النمط والأسلوب.

أما كتب التراجم فقد كان اهتمامها المنهجي منصبا على الترتيب الأبجدي للشخصيات المدروسة، دونما النظر إلى السياقات العامة والحركة الثقافية عموما، وهو ما يعبر عنه صاحب فتح الشكور بقوله: (ورأيت سلفنا قد ألفوا تآليف عديدة في تعريف العلماء في كل نوع من التاريخ ، فمنهم من ألف في رجال مذهبه، ومنهم من ألّف في النحاة، وغير ذلك، ورأيتهم لم يذكروا علماء تكرور؛ لبعد المسافة بينهم وبين علمائنا ... وكان في التعريف بهم تبرك بذكرهم، كما هو معلوم ...أردت أن آتي بتاريخ أعيان علماء التكرور؛ لتعرف مراتبهم في الفقه والدين ..مرتبا لهم على حروف المعجم المغربية مقدما عند اتفاق أسمائهم من سبقت وفاته على غيره".

وقد ظل السؤال المنهجي حول تطور الكتابة التاريخية يشكل أي عائقا أمام أي تصور حداثي مما يعبر عنه جمال ولد الحسن بقوله: ولذلك أسباب عدة، منها غلبة الطابع البدوي على حياة القوم بما يلازمه من حل وترحال، واضطراب في ظروف الحياة، وشدة اهتمام النخبة المثقفة بالعلوم الدينية حتى كاد اهتمامها ينحصر فيها، ومنها البنية الاجتماعية والسياسية المتميزة إذ كانت البلاد موزعة إلى قبائل وإمارات تعتمد كل منها في تناقل أحداث الماضي على الرواية الشفوية."

المحور الخامس- عوائق البحث في المجال التاريخي:

على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها باحثون معاصرون منذ ثمانينيات القرن الماضي في إنتاج دراسات قيمة عن المجال الموريتاني، ومقاربات موضوعية في غالبها تتخذ المنهج المعاصر أساسا لها ومحورا تتحرك وفقه لفهم المجتمع وتحولاته العميقة - فإن هذه الدراسات على كثرة إيجابياتها ظلت تتحرك في إطار واسع جدا، وفي مواضيع كلية عن المجال الموريتاني، وقد يجد بعضها الوجاهة في غياب ما يؤسس عليه من دراسات مسبقة للمجال الموريتاني وفق المناهج المعاصرة في الغاية من التاريخ والدراسات التي تنتهج طرحا بنيويا في هذا الإطار. بحيث اقتصرت هذه الجهود على رعاية بعض المشاريع التي لم يكتب لها البقاء، ولم تعمّر كثيرا كرعاية أعمال البحث الأثري التي جرت في أوداغشت وكومبي صالح، والتي قدّم الرئيس الموريتاني الراحل المختار ولد داداه لأول كتاباتها، كما وجهت الدولة بعض المؤرخين والإخباريين، كهارون بن الشيخ سيدي بابه، والمختار بن حامدنإلى كتابة جوانب من تاريخ البلاد، ولمّ شتات مصادره، وخلال سبعينيات القرن العشرين سنة١٩٧٤قامت الحكومة الموريتانية بتأسيس المعهد الموريتاني للبحث العلمي، وأوكلت إلى هذه المؤسسة الناشئة جمع وتنظيم المخطوطات التاريخية، وأشرفت هذه المؤسسة على نشر بعض الأعمال التاريخية في إطار مشروع التقاليد المكتوبة والمروية بموريتانيا.

بالتالي تُعدُّ هذه الأعمال من أهم ما أنجز حتى الآن في إيجاد دراسات منوغرافية تهتم بالجانب الأثري، وأرشفة المخطوطات العلمية سبيلا إلى حفظها ووضعها بمكنة الباحثين والدارسين؛ للاستفادة منها في أبحاثهم النظرية، أو تحقيقها من أجل أن لا تطمرها عوادي الزمن، وهو ما ظل قليلا نظرا لكثرة المؤلفات والتصانيف المخطوطة في هذا المجال المعني.

وعموما، فقد حدت عوامل كثيرة من تطور الكتابة التاريخية، وأعاقت كثيرا الحركة الثقافية، بل كانت انعكاسا لتطور المعارف ولميولات الساكنة في الحاجة إلى التاريخ للضرورات المحلية في المجتمعات التقليدية مما يمكن رصده في الملاحظات التالية:

- البنية القبلية والعشائرية: تبدو القبيلة في علاقتها مع الدولة تحظى بكثير الامتيازات، فلا الأخيرة قادرة على التخلص من رمزيتها في إطار يمجد الإرث القبلي وينصاع له وفق التحالف والتضامن اللاإرادي حين المحن والجوائح، أو المساس بالمصالح.

وهو أمر انعكس على تطور الصناعات الثقافية، بل حد من أثرها ودور تجاوزها في التغيير وصناعة رأي مغاير يخضع للعلمية وللمقاربات الموضوعية في ذلك الاتجاه، وهو أمر جعل الكثير اليوم من الكتابات تخضع لمعايير الأنا الفرد في إطار بحثه عن أرث الآباء والأجداد والكتابة عنه مبحثا عن ماضي يمكن أن يوظف في أدوارهم ووظائفهم، ورمزية ذلك في مجتمعاتهم، وبالتالي تغيب العلمية البحتة والمنهجية الأكاديمية في هذه الأعمال على كثرة وتعدد أنواعها المكتوبة من غير المختصين.

على أن الملاحظ سيلاحظ أن الكتابة في مصائر الناس وتاريخهم وبنياتهم سينطلق من هذا المبدأ في عدم وجود مراكز مختصة ترعى تاريخية المجال ودوره، على أن المسألة لا ترتبط بمجال معين، أو منطقة قد تكون لها مساهماتها المبدئية بغض النظر عن صدقيتها، غير أن ما يمكن التفطن إليه هو أنه سيربط بمحددات وفقها يفهم ما ينتج ويبرر وفق القاعدة العامة بفقدان الكتابة الشاملة، بالتالي أي عمل في هذا المجال واجد العذر كل العذر في بيئته ما دام لم يكتب شيئا، ولم يؤلف، وما وُجد يتآكل في صناديق تلتهمه الصحراء من جهة وسوء التدبير، لكأن الملاحظ يمكن أن يربط بين تاريخين، أو فترتين دون كبير عناء خصوصا في المبدأ والأسس المنطلق منها تجوزا كانت الكتابة التاريخية شحيحة، ترتبط ارتباطا عضويا بسياقها في غياب السلطة، وانعدام الوسائل، غير أن المدرك هنا بداهة أن الكتابة المعاصرة ستنطلق من المبدأ نفسه واجدة العذر في انعدام الكتابة، رغم وجود الدولة وانسيابية نظام الحكم.

وقد ساهمت الثقافة الشفاهية وعدم خضوعها للمعايير العلمية المعروفة من قبل المختصين إلى تداولها بشكل كبير وبروزها كمصدر أساسي في الكتابة عن التواريخ المؤسسة لهذا المجال، دون النظر إلى صدقيتها، أو تهافتها باعتبارها مقدسا عائليا معينا لمجموعة أو فئة ما.

وضعية المخطوطات الموريتانية: التي تتوزع ما بين مخطوطات مركونة في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، وهي في أحسن أحوالها مصنفة لكن عملية الإخراج والتحقيق ما زالت ضئيلة، وبين مخطوطات أهلية ـ هي الأكثر ـ تُعدُّ ملكا شخصيا وتراثا عائليا محضا مما يجعل أي كتابة تاريخية لتاريخ هذا البلد ناقصة ما لم تخرج تلك المصنفات إلى الوجود، وتصير بأيادي الباحثين.

- غياب الدراسات الحديثة في ما يتعلق بالمواضيع ذات الطبيعة المستحدثة، مثل الأوبئة والمجاعات، أي التاريخ الطويل حسب مفهوم مدرسة الحوليات

الفرنسية، لذا فإن عناوين من تاريخ البلاد على صيغة الجمع سيكثر في الدراسات المستحدثة بما بعد الاستقلال.

- عدم حسم الهوية والثوابت التي يكتب وفقها هذا التاريخ بين نظرة تنتهج البعد العربي في إرجاع الأصول إلى هذا المحتد، وبين نظر أفريقي يجد الوجاهة في الاستئناس بالطرح الإفريقي.

وتبدو عوامل أخرى تجد الوجاهة في هذا التحليل من قبيل البداوة والاعتناء بالتاريخ وفق نظر يتأسس على النظام القبلي وانعدام رؤية جماعية من قبل الدولة الناشئة في تشكيل موسوعة وطنية على غرار الجوار، وإن كان مطلبا تعدد دواعيه في السياق الموريتاني.

الخاتمة:

وفي الختام تبدو الحاجة إلى كتابة تاريخ وطني مطلبا ملحا، ورؤية إستراتيجية بنظر معاصر يتجاوز الفرد إلى سياق بنيوي شامل يدرس الظواهر ويحللها وفق التحولات وأماكن الانتجاع دون إقصاء لأي طرف كان، أو فئة اجتماعية مهما كانت.

ولعل مطلب الانفتاح على العلوم المساعدة، وإرسال البعثات العلمية من أجل الاضطلاع على المورث الوطني في المكتبات العالمية، والمجالات المصاقبة من الناحية الجغرافية - هو داعي له كل الوجاهة في تثبيت مسلمات ما، أو نفيها، أو إخضاعها للنقد التاريخي المعاصر.

لذا يظهر أن التاريخ الموريتاني لم يُكتب - إلى حد الساعة- كتابة علمية تتجاوز الفرد وميولاته ورغباته في صنع الأحداث والمتخيل الآسر لأبناء القبيلة مما يعد تراثا عائليا يدخل في إطار المقدس والشرعية التاريخية.

ولعل الاهتمام بالفتاوى والنوازل والشواهد الأثرية سيشكل رصيدا معرفيا إضافيا لهذا التاريخ، ويعطى معلومات غائبة، أو مغيبة عن المسكوت، والمتجاوز عنه في التاريخ المحلي الوطني. وعموما، فقد حدت مجموعة من العوامل من التطورات المستحدثة في المناهج وتطبيقها على الحالة الموريتانية مما يتمثل في الآتي:

- البنية القبلية والعشائرية: تبدو القبيلة في علاقتها مع الدولة تحظى بكثير الامتيازات، فلا الأخيرة قادرة على التخلص من رمزيتها في مجتمع يمجد الإرث القبلي، وينصاع له وفق التحالف والتضامن اللاإرادي حين المحن والجوائح، أو المساس بالمصالح.

وهو أمر انعكس على تطور الصناعات الثقافية بل حد من أثرها ودور تجاوزها في التغيير وصناعة رأي مغاير يخضع للعلمية وللمقاربات الموضوعية في ذلك الاتجاه، وهو أمر جعل الكثير اليوم من الكتابات تخضع لمعايير الأنا الفرد في إطار بحثه عن أرث الآباء والأجداد والكتابة عنهم بحثا عن ماضٍ يمكن أن يوظف في أدوارهم ووظائفهم ورمزية ذلك في مجتمعاتهم، وبالتالي تغيب العلمية البحتة والمنهجية الأكاديمية في هذه الأعمال على كثرة وتعدد أنواعها المكتوبة من غير المختصين.

على أن الملاحظ سيلاحظ أن الكتابة في مصائر الناس وتاريخهم وبنياتهم سينطلق من هذا المبدأ في عدم وجود مراكز مختصة ترعى تاريخية المجال ودوره، على أن المسألة لا ترتبط بمجال معين، أو منطقة قد تكون لها مساهماتها المبدئية بغض النظر عن صدقيتها، غير أن ما يمكن

التفطن إليه هو أنه سيربط بمحددات وفقها يفهم ما ينتج ويبرر وفق القاعدة العامة بفقدان الكتابة الشاملة، بالتالي أي عمل في هذا المجال واجد العذر كل العذر في بيئته ما دام لم يكتب شيئا، ولم يؤلف، وما وجد يتآكل في صناديق تلتهمه الصحراء من جهة وسوء التدبير، لكأن الملاحظ يمكن أن يربط بين تاريخين، أو فترتين دون كبير عناء خصوصا في المبدأ والأسس المنطلق منها تجوزا كانت الكتابة التاريخية شحيحة ترتبط ارتباطا عضويا بسياقها في غياب السلطة وانعدام الوسائل، غير أن المدرك هنا بداهة أن الكتابة المعاصرة ستنطلق من المبدأ نفسه، واجدة العذر في انعدام الكتابة رغم وجود الدولة، وانسيابية نظام الحكم.

وتبدو عوامل أخرى تجد الوجاهة في هذا التحليل من قبيل البداوة والاعتناء بالتاريخ وفق نظر يتأسس على النظام القبلي وانعدام رؤية جماعية من قبل الدولة الناشئة في تشكيل موسوعة وطنية على غرار الجوار، وإن كان مطلبا تعدد دواعيه في السياق الموريتاني.

النتائج:

١. الثقافة الشفاهية وعدم خضوعها للمعايير العلمية المعروفة من قبل المختصين إلى تداولها بشكل كبير وبروزها كمصدر أساسي في الكتابة عن التواريخ المؤسسة لهذا المجال، دون النظر إلى صدقيتها أو تهافتها باعتبارها مقدسا عائليا معينا لمجموعة أو فئةما.

٢. غياب الدراسات الحديثة في ما يتعلق بالمواضيع ذات الطبيعة المستحدثة، مثل الأوبئة والمجاعات، أي التاريخ الطويل حسب مفهوم مدرسة الحوليات الفرنسية، لذا فإن عناوين من تاريخ البلاد على صيغة الجمع سيكثر في الدراسات المستحدثة بما بعد الاستقلال.

٣. عدم حسم الهوية والثوابت التي يكتب وفقها هذا التاريخ، أي القواعد التي يكتب وفقها هذا التاريخ بنظر لا يخلو من التقليد والنظر إلى الكتابة التاريخية بوصفها وعاءا للبنية القبلية على أساس منها تعطى المراتب والمنازل.

التوصيات:

١. إنشاء موسوعة علمية تهتم بتاريخ هذه المنطقة بعيداً عن النوازع والأفكار القبلية المتهمة على حساب التاريخ العام؛ مما يجعل الكتابة التاريخية في هذا الصقع تعتمد بالأساس البعد المناطقي، وهي كتابات محلية تكثر في المجال الموريتاني من طرف الهواة، وغير المختصين.

٢. أرشفة هذه الكتابات ومحاولة تحقيقها، والعمل على إخراجها إلى الوجود، من أجل أن لا تطمرها عوادي الزمن.

٣. العمل على إخراج المخطوطات النوازلية، ووضعها في مؤسسات الدولة من أجل اضطلاع الباحثين عليها؛ مما سيغير الكثير من الأحكام، والمسلمات في هذا التاريخ.

٤. وهو سابق على ما سواه- إنشاء هيئة وطنية تضم مختلف الباحثين والنظر في تجارب الآخرين والاستفادة من خبراتهم من أجل كتابة تاريخ وطني يبتعد عن المجاملة و المزايدة، وغيرها من الأدوات العلمية.

الحواشي :

١. ـ محمد بن أحمد يورة، إخبار الأحبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد ولد الحسن، الطبعة الأولى، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ـ المغرب، ١٩٩٢،ص. ٦.

٢. ـ حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنقيطي موريتانيا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان. ٢٠١٠، ص. ١٤.

٣. ـ حماه الله ولد السالم، موريتانيا في الذاكرة العربية، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.٢٠٠٣، ص ١١٤.

٤. ـ سيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم، رسالة الروض في أنساب أهل الحوض، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط ـ موريتانيا. ص. ٥ أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ مصر، ١٩٨٩ ص. ٤٢٤

٥. ـ أحمد الشكري، الكتابة التاريخية السودانية نموذج كعتو عبدالرحمن السعيدي، المغرب الإفريقي : مجلة متخصصة في التراث والدراسات الإفريقية، العدد٦، الرباط ـ المغرب، ٢٠٠٥ ص. ٩٨

٦. ـ بابه بن الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشظوف» دراسة في التاريخ السياسي الموريتاني، دراسة وتحقيق إزيد بيه ولد محمد محمود، الطبعة الأولى، المعهد التربوي الوطني، نواكشوط ـــ موريتانيا. ١٩٩٤، ص. ٩٠

٧. ـ الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط» عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة المحاضر، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧ص ٥٣٦ المختار بن حامدن ، الحياة الثقافية، الطبعة الأولى، الدار العربية للكتاب، طرابلس ـليبيا.١٩٩٠، ص. ٥٠

٨. ـ محمد اليدالي ، نصوص من التاريخ الموريتاني، شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة، تقديم وتحقيق محمذن ولد باباه، الطبعة الأولى، بيت الحكمة، قرطاج ـــ تونس، ١٩٩٠، ص. ٢٠محمد بن أعمر، حوليات تشيت، تحقيق محمد وولد لمرابط , بحث مقدم لنيل شهادة المتريز في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط موريتانيا، ١٩٩٢م، ص. ٥

٩. ـ المصدر نفسه، ص. ٩٥

١٠. ـ سيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم، رسالة الروض في أنساب أهل الحوض، مصدر سابق ، ص.٢

١١. ـ محمدو محمذن، المصادر الأجنبية للتاريخ الموريتاني المعاصر، قراءة في الأرشيف السنغالي، أعمال المؤتمر الأول لمنتدى التاريخ المعاصر، مؤسسة التميمي للبحث والمعلومات، المنعقد من ٢٧ إلى ٢٩ نوفمبر ١٩٩٧ زغوان. تونس، ١٩٩٨، ص. ٢٦

١٢. ـ الأمين بن محمد بابه المصطفي، نزاع الكتابي والشفوي ومفارقات التراث الموريتاني، ضمن أعمال التاريخ الشفوي: مقاربات في المفاهيم والمنهج والخبرات، الطبعة الأولى،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة ـ قطر. ٢٠١٥، ص.٤٠٠

١٣. ـ عبدالله العروى، مفهوم التاريخ، الطبعة الرابعة،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ المغرب.٢٠٠٥، ص. ٢٧١

١٤. ـ حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنقيطي موريتانيا، مرجع سابق، ص. ١٣

١٥. ـ محمد المختار ولد السعد، عوائق البحث في التاريخ الموريتاني، مجلة المؤرخ العربي، العدد٦، القاهرة ـ مصر. ١٩٩٤، ص.٤٠

١٦. ـ منى ولد عبد القادر، الكتابة التاريخية في موريتانيا، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة الحسن الثانى الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص. ٣٤

١٧. ـ حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنقيطي موريتانيا، مرجع سابق، ص. ١٤

١٨. ـ محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر «قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية،

منشـورات معهـد الدراسـات الإفريقيـة، الربـاط ـــ المغـرب، ٢٠٠١، ص. ٣٢
١٩. ـ يحيـى بـن البـراء، المجموعـة الكاملـة الشـاملة لفتـاوى ونـوازل وأحـكام أهـل غـرب وجنـوب غـرب الصحراء،الطبعـة الأولى، النـاشر مـولاي الحسـن بـن المختـار بـن الحسن،نواكشـوط ـ موريتانيـا، ٢٠٠٩م، ص.٨ محمـد المختـار بـن السـعد، الفتـاوى والتاريـخ، دراسـة لمظاهـر الحيـاة الاقتصاديـة والاجتماعيـة في موريتانيامـن خـلال فقـه النـوازل، الطبعـة الأولى، دار الغـرب الإسـلامي، بـيروت ـ لبنـان.٢٠٠٠، ص. ١٢
٢٠. ـ حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنقيطي موريتانيا، مرجع سابق، ص.١٥
٢١. ـ بابـه بـن الشـيخ سـيدي، إمارتـا إدوعيـش ومشـظوف» دراسـة في التاريـخ السـياسي الموريتـاني، مصـدر سـابق، ص. ٥٧
٢٢. ـ حماه الله ولد السالم، موريتانيا في الذاكرة العربية، مرجع سابق، ص. ٣٤
٢٣. ـ المرجع نفسه، ص.٣٨
٢٤. ـ بـاب بـن أحمـد بـن الشـيخ سـيديا،الخطاب التاريخـي مـن خـلال الحسـوة البيسـانية، مذكـرة لنيـل شـهادة المتريـز، جامعـة نواكشـوط، ٢٠٠٧، ص. ١٥
٢٥. ـ المرجع نفسه، ص. ١٦
٢٦. ـ منى ولد عبد القادر، الكتابة التاريخية في موريتانيا، مرجع سابق، ص. ٤٥
٢٧. ـ محمـد بـن أبي بكـر الصديـق البرتـلى، فتـح الشـكور في معرفـة أعيـان علـماء التكـرور، تحقيـق محمـد إبراهيـم الكتـاني ومحمـد حجـي، دار الغـرب الإسـلامي، الطبعـة الأولى، ١٩٨١م،ص. ١٥.
٢٨. ـ محمد بن أحمد يورة، إخبار الأحبار بأخبار الآبار، مصدر سابق، ص ٣.
٢٩. ـ مـن أهـم الأعـمال ـ وليـس أكملهـا التـي أنجـزت في هـذا المجـال الجـرد الببليوغـرافي، أو دليـل المؤلفـين الموريتانيين الـذي قـام بـه المـؤرخ الموريتـاني المختـار بـن حامـد بمسـاعدة الخبـير هيمـو فسـكي خـلال سـنتي ١٩٦٥ /١٩٦٦. المختـار بـن حامدن(١٩٦٦)،الجـرد الببليوغـرافي أو دليـل المؤلفـين الموريتانيـين، المعهـد الموريتـانى للبحـث العلمـي، نواكشـوط ـ موريتانيـا.
٣٠. ـ محمد المختار ولد السعد، عوائق البحث في التاريخ الموريتاني، مرجع سابق، ص. ٤٦
٣١. ـ حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنقيطي موريتانيا، مرجع سابق، ص.١٥
٣٢. ـ الأمين بن محمد بابه المصطفي، نزاع الكتابي والشفوي ومفارقات التراث الموريتاني، مرجع سابق، ص.٤١٠
٣٣. ـ بـاب بـن الشـيخ سـيديا(٢٠١٣)، تاريـخ اللبنيـات الاجتماعيـة والاقتصاديـة في بـلاد شـنقيط مـن خـلال الفتـاوى والنـوازل، أطروحـة دكتـوراه ، التاريـخ المعـاصر، قسـم التاريـخ، كليـة الآداب والعلـوم الإنسـانية، جامعـة الحسـن الثـاني ـــ المغـرب.٢٠١٣ ص. ٤.
٣٤. ـــمحمد سـعيد أحمـدو، موريتانيـا بـين الانتـماء العـربي والتوجـه الافريقـي دراسـة في إشـكالية الهويـة السياسـية، الطبعـة الأولى، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، بـيروت، لبنـان، ٢٠٠٥، ص ٣٢.